

الحرية والتحرر

بقلم سيمون دوبوفوار
ترجمته جورج طرابيشي

الوجود في قلبه ، فانها تفشل جذريا . لكنها تفلت من كل انتقاد اذا ما قبلنا بأن الوجود يلقي بنفسه من خلالها، ودون ان يتمنى الاخلاص الى الراحة في امان الكينونة، الى امام نفسه كيما يلقي بنفسه الى الامام اكثر ايضا، واذا ما قبلنا بأنه ينشد كشفا لا محدودا للكينونة عن طريق تحويل الشيء الى اداة ، وبأنه يهدف الى ان يفتح للانسان امكانيات جديدة دوما . أما عن الفن ، فقد سبق ان قلنا ان عليه ألا يدعي انه يشيد أصناما معبودة : انما عليه ان يكشف للبشر عن الوجود باعتباره سببا للكينونة . ولهذا أدان افلاطون ، الذي كان يريد انتزاع البشر من الارض وتوجيههم الى سماء المثل ، الشعراء . ولهذا ايضا يكلل كل مذهب انساني جبينهم بأكاليل الفار ، على العكس من افلاطون . ان الفن يكشف المؤقت وكأنه مطلق . ولما كان الوجود المؤقت يمتد عبر قرون ، فلا بد ايضا من ان يطيل الفن عبر القرون بأمد هذا الكشف الذي لن يكتمل ولن ينتهي ابدا . وعلى هذا فان نشاطات الانسان البناءة لا تأخذ معنى له قيمته الا اذا اخذها على عاتقه كحركة نحو الحرية . وبالمقابل فاننا نرى ان مثل هذه الحركة عينية : فالاكتشافات ، والاختراعات ، والصناعات ، والثقافة ، واللوحات ، والكتب ، تعمر العالم عينيا وتفتح للبشر امكانيات عينية .

ولعله من المسموح به ان نحلم بمستقبل لن يعرف البشر فيه من استعمال لحريرتهم غير بذلهم الحر لها: وأنداك سيستطيع كل انسان ان يمارس نشاطا بناء ، وسيستطيع كل فرد ان ينشد ايجابيا من خلال مشاريعه مستقبله الخاص . لكن الواقع ان هناك اليوم بشرا لا يستطيعون تبرير حياتهم الا عن طريق عمل سلبي . ولقد كنا رأينا ان كل انسان يتجاوز نفسه . لكن قد يحدث ان يكون هذا التجاوز محكوما عليه بأن ينكفيء على نفسه بدون جدوى ، لانه فصل عن اهدافه . وهذا ما يحدد الموقف الاضطهادي . ومثل هذا الموقف ليس طبيعيا البتة: فالانسان لا يخضع لاضطهاد الأشياء ، ولهذا فانه لا يتمرد عليها ، اللهم ان لم يكن طفلا ساذجا يضرب الحجارة، أو اميرا ملتاعا هائما يجلد البحر : انه لا يتمرد الا على البشر فقط . ان مقاومة الشيء تدعم عمل الانسان كما يدعم الهواء طيران الحمامة . والانسان اذ يلقي بنفسه من خلال هذه المقاومة ، يقبل بأن يؤسسها كعقبة ، ويتحمل المجازفة بفشل لا يرى فيه تكديبا لحريرته . ان المستكشف يعرف انه قد يرغم على التراجع قبل الوصول الى الهدف ، والعالم يعلم ان تلك الظاهرة يمكن ان تظل مبهمة عايسه، والتكنيكي يعلم ان محاولته قد تجهض: ان هذه التراجعات، وهذه الاغلاط هي ايضا طريقة في كشف العالم . ويقينا، ان العقبة المادية تستطيع ان تناهض بوحشية مشروعا ما: فالفيضانات ، والهزات الأرضية ، وموجات الجراد،

ان احد الاعتراضات الرئيسية (*) التي توجه الى الوجودية هو ان مفهوم « ارادة الحرية » ، ليس المفهوم فارغا لا يقترح أي مضمون عيني على العمل . لان كلمة الحرية قد بدأت تفرغ من معناها العيني . ولقد رأينا ان الحرية لا تتحقق الا بانخراطها في العالم : بحيث ان مشروعها نحو الحرية يتجسد بالنسبة للانسان في شروط محددة .

ان ارادة الحرية . وارادة كشف الكينونة ، انما هما اختيار واحد وحيد . ومن هنا تتعين خطوة ايجابية وبناءة للحرية تحقق الانتقال من الكينونة الى الوجود في حركة متجاوزة باستمرار . ان العلم والتقنية والفن والفلسفة انما هي فتوحات لا محدودة للوجود على الكينونة : وهي لا تأخذ وجهها الاصيل الا بتبنيها نفسها على هذا النحو . وانما على ضوء هذا التبني تجد كلمة التقدم معناها الحقيقي . وليس المقصود هنا الاقتراب من لفظة ثابتة: كالعالم المطلق ، او سعادة الانسان ، او كمال الجمال . اذ سيحكم في مثل هذه الحال بالفشل على كل جهد انساني، ذلك ان الافق يتراجع مع كل خطوة خطوة . انما المقصود ان يتابع الانسان توسيع وجوده وأن يستعيد ملكية هذا الجهد بالذات استعادة مطلقة .

ان العلم يحكم على نفسه بالفشل حين يدعي، بائستسلامه لدوار الجدل ، انه يبلغ الكينونة ، وانه يحتويها ويمتلكها . لكنه يجد حقيقته اذا ما اعتبر نفسه انخرطا حرا للفكر في المعطى ، يهدف عند كل اكتشاف ، لا الى الاتحاد بالشيء ، بل الى امكانية اكتشافات جديدة . وما يرمي اليه الفكر انذاك هو التحقيق العيني لحريرته . يزعم الانسان احيانا انه يبحث في التقنية عن تبرير موضوعي للعلم . . لكن عالم الرياضيات يهتم عادة بالرياضيات ، والفيزيائي بالفيزياء ، لا بتطبيقاتهما . والتقنية نفسها بالاصل ليست مبررة موضوعيا . واذا ما كانت تطرح توفير الوقت والشغل الذي تسمح بتحقيقه ، والرفاه والترفيه اللذين تسمح بالوصول اليهما ، على أنها أهداف مطلقة ، فانها تبدو في مثل هذه الحال لا مجدية ، باطلة: ذلك ان الوقت الذي يوفر لا يمكن ان يجمع في هري من الاهراء . وانه لمن التناقض ارادة توفير الوجود الذي لا يوجد على وجه التحديد الا بتجاوزه نفسه ، وانه لمن قبيل التبجح الادعاء ان الطائرات والآلات والهاتف والاسلاك لا تجعل بشر اليوم اكثر سعادة من بشر الماضي . لكن ليس المقصود في الحقيقة اعطاء البشر وقتا وسعادة، وليس المقصود حركة الحياة : انما المقصود انجازها . واذا كانت التقنية تزعم انها تملأ ذلك النقص الذي يحمله

(*) فصل من كتاب « نحو اخلاق وجودية » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الاداب .

الاستغلال . لكن ما يعنيه الثوري بهذه الكلمة هو ان النظام الـ اهن القائم واقعة انسانية . وعلى هذا الاساس ينبغي ان يرفض . وهذا الرفض يفصل بدوره ارادة المظهد عن ذلك المستقبل الذي يزعم انه يلقي بنفسه نحوه وحده: فيجد امامه مستقبلا آخر ، هو مستقبل الثورة . ان الصراع ليس صراع كلمات او عقائد ، بل هو صراع واقعي وعيني : واذا ما انتصر هذا المستقبل لا ذلك، فانه المظهد الذي يحقق نفسه كحرية ايجابية منفتحة، وانه المظهد الذي يصيح عقبة ، شيئاً .

اذن فهناك طريقتان لتجاوز المعطى : ثمة فرق كبير بين الاستمرار في رحلة او الهرب من سجن . ففي كلتا الحالتين يكون المعطى ماثلا في تجاوزه . لكنه في الحالة الاولى مائل باعتباره مقبولا به ، وفي الحالة الثانية باعتباره مرفوضا ، وفي هذا خلاف جذري . ولقد خلط هيجل هاتين الحركتين في لفظة **anfhaben** الملتبسة . وانما على هذا الالتباس تقوم كل بناية مذهب التفاؤل الذي ينفي الفشل والموت . وانما هذا الالتباس هو الذي يسمح باعتبار مستقبل العالم تطورا متصلا منسجما . وهذا الخلط هو المصدر والنتيجة معا ، وهو خلاصة كاملة لتلك الرخاوة المثالية والثرارة التي يأخذها ماركس على هيجل والتي يعارضها بصلاية واقعية . ان التمرد لا ينسدمج بتطور العالم المنسجم ، ولا يريد الاندماج به ، بل ان ينفجر في قلب هذا العالم وان يحطم استمراره . وليس من قبيل الصدفة ان يكون ماركس قد حدد موقف البروليتاريا سلبيا لا ايجابيا : انه لا يظهرها وكأنهالا تؤكد نفسها بنفسها، ولا كأنها تسعى الى تحقيق مجتمع لا طبقات فيه ، بل يصورها على انها تميل اولا الى ان تحذف نفسها كطبقة . ولان هذا الموقف ليس له على وجه التحديد من مخرج اخر غير المخرج السلبي ، كان لا بد ان يحذف .

وجميع البشر معيون بهذا الحذف ، من مظهد ومظهد على حد سواء كما يقول ماركس نفسه : ذلك ان كل انسان بحاجة الى ان يكون جميع البشر احراراً . ونمة حالات لا يعرف فيها العبد عموديته ، ولا بد فيها من ان تحمل اليد بذرة تحرره من الخارج : ذلك ان خنوعه لا يكفي لتبرير الطغيان الذي يمارس ضده . ان العبد يخنع حين ينجح المظهد في تضليله الى حد لا يبدو معه موقفه له وكأنه مفروض من قبل البشر ، بل انه معطى مباشرة من قبل الطبيعة ، من قبل الالهة ، من قبل قوى ليس للتمرد عليها من معنى . وآئذ فانه لا يقبل بشرطه بعامل من استقالة حريته ، بل لانه لا يستطيع حتى ان يحلم بشرط اخر : وهو يستطيع ، داخل هذا العالم الذي يجسه فيه جهله ، ان يعيش عيشة انسان اخلاقي وحر، في علاقاته مع رفاقه على سبيل المثال . وسيستمد المحافظ من ذلك الحجة كي يزعم انه لا ينبغي لنا ان نشوش ذلك السلام : فمن الواجب الا نثقف الشعب والا نحقق للوطنيين المستعمرين من رفاهية . وهذا هو معنى قصة قديمة لشارل مورا : ينبغي الا نوقظ النائم ، لاننا اذا ما ايقظناه فسيستيقظ على التعاسة . يقينا ، ليس المقصود، بحجة التحرير ، ان نلقي بالبشر رغما عنهم في عالم جديد لم يختاروه ، وليس لهم عليه من سيطرة . لقد كان انصار الرق في كاليفورنيا يجدون اللذة حين يرون الشماليين المنتصرين عليهم عبدا سودا مسنين ضائعين امام حرية لا يعرفون ما يفعلون بها ويطلبون وهم يبيكون بسادتهم القدامى . ان مثل هذا التحرير الزائف - مع انه

والاوبئة ، والطاعون ، هي كوارث . لكن انما هنا تكمن احدى حقائق المذهب الرواقي : اذ على الانسان ان يتحمل حتى هذه المصائب ، ولما كان عليه الا يستقل ابدا عن ذاته لمصلحة أي شيء كان ، فان دمار أي شيء كان لن يكون ابدا بالنسبة له دمارا جذريا . بل ان موته بالذات ليس شرا ، باعتبار انه ليس انسانا الا بمقدار ما يكون فانها : ان عليه ان يتحمل موته باعتباره نهاية طبيعية لحياته ، باعتباره المجازفة التي تشتمل عليها كل خطوة حية . والانسان وحده يستطيع ان يكون عدوا للانسان، ووحده يستطيع ان يوارى عنه معنى افعاله وحياته، لانه ليس الا من شأنه هو وحده ايضا ان يعززه في وجوده، وان يعترف به فعليا كحرية . وانما هنا يتبين ان التمييز الرواقي بين « الاشياء التي لا تتعلق بنا » وبين الاشياء « التي تتعلق بنا » هو تمييز ناقص : ذلك ان « نحن » جوقة عظيمة وليست فردا واحدا . ان كل فرد يتعلق بالآخرين ، وما يحدث لي عن طريق الاخرين انما هو معلق بي من حيث معناه . اننا لا نتحمل الحرب او الاحتلال كما نتحمل الهزة الارضية : فلا بد من ان نتخذ موقفا ضدهما او معهما ومن هنا تصبح الحريات الاجنبية حليفة او معادية . وهذه التبعية المتبادلة هي التي تفسر ان يكون الاضطهاد ممكنا وان يكون بغضا مكروها . ولقد رأينا ان حريتي تتطلب كي تحقق نفسها ان تفتح على مستقبل مفتوح . وانهم البشر الاخرون الذين يفتحون لي المستقبل، وانهم هم الذين يحددون مستقبلي عن طريق بنائهم عالم الغد . لكن اذا ما ارغموني على استهلاك صوتي بلا جدوى، واذا ما ابقوني دون المستوى الذي وصلوا اليه والذي سيقومون بفتوحات جديدة بدءا منه ، بدلا من ان يسمحوا لي بالمساهمة في هذه الحركة البناءة ، فانهم يفصلونني آنذاك عن المستقبل ، ويحولونني الى شيء . ان الحياة تبذل جهودها لاطالة امدها، ولتجاوز نفسها في آن واحد معا . واذا لم تفعل شيئاً سوى الحفاظ على نفسها ، فان يحيا الانسان ليس معناه انذاك الا ان لا يموت ولن يتميز الوجود الانساني عن حياة نباتية عيشية . ان الحياة لا تبرر نفسها الا اذا اندمج مجهودها لاطالة امدها في التجاوز، ولا اذا لم يكن لهذا التجاوز من حدود اخرى غير الحدود التي تضعها الذات لنفسها . ان الاضطهاد يقسم العالم الى فئتين : فهناك من يبنون الانسانية بالقدف بها الى امام نفسها ، وهناك من حكم عليهم بالمرأوحة في مكانهم دونما أمل كي يصنوا الجماعية فقط . ان حياة هؤلاء الاخيرين تكرر محض لحركات ميكانيكية ، واوقات فراغهم تكفي بالضبط لاستعادة قواهم . والمظهد يتغذى من صوتهم، ويرفض ان يطيل في امدها عن طريق اعتراف حر بها . ولا يبقى للمظهد الا حل واحد : هو ان ينفي انسجام تلك الانسانية التي يزعمون انهم يستبعدونه منها ، هو ان يقيم البرهان على انه انسان وأنه حر عن طريق تمرد ضد الطغاة . واحدى حيل الاضطهاد لدرء هذا التمرد ، هو ان يموه نفسه باهاب وضع طبيعي : باعتبار ان الانسان لا يستطيع بالفعل ان يتمرد ضد الطبيعة . وحين يريد المحافظ ان يثبت ان البروليتاريا ليست مضطهدة، يعلن ان التوزيع الراهن للثروات هو واقعة طبيعية وانه ليس ثمة من وسيلة بالتالي لرفضه . وهو يتجح بلا ريب في ان يثبت انه لا يسرق ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، من العامل نتاج عمله ، باعتبار ان كلمة سرقة تستلزم وتفرض المواضع الاجتماعية التي تسمح اصلا بهذا النوع من

الى ما لا نهاية . ويقينا ان البروليتاري ليس اكثر اخلاقية من أي انسان اخر من حيث طبيعته . فهو يستطيع ان يهرب من حريته ، وان يبددها ، وان يعيش عيشة الكفاف دونما رغبة ، وان ينذر نفسه لاسطورة لا انسانية . وحيلة الرأسمالية « المستنيرة » آنذاك هي ان تجعله ينسى اهتمامه بتبرير أصيل ، وان تقترح عليه ، حين خروجه من المصنع الذي يستهلك فيه الشغل الميكانيكي صوته ، تساليات ينتهي الامر بهذه الصبوة الى ان تضع فيها تماما : وهذه هي سياسة ارباب العمل الاميركيين التي توقع بالعامل في فخ الرياضة والالعاب والسيارات والاثلاجات . ومع ذلك فانه يميل الى الخيانة اقل مما يميل اليها اعضاء الطبقات صاحبة الامتيازات ، لان اشباع اهوائه ، وحب المغامرة ، وترغبات الجدية الاجتماعيه ، محرمة عليه . ومن الممكن بشكل خاص للبورجوازي وللمثقف ، في الوقت نفسه الذي يستطيعان فيه ان يتعاونوا في النضال ضد الاضطهاد ، ان يستعملا حريتهما استعمالا ايجابيا : فمستقبلهما ليس مسدودا . وهذا ما يشير اليه بونج على سبيل المثال ، حين يقول انه يكتب ادبا « تاليا للثورة » . فمن المسموح به للكاتب ، كما للعالم وللتكنيكي ، بان يحقق ، قبل ان تنجز الثورة ، خلق العالم من جديد ، ذلك الخلق الذي ينبغي ان يكون من صنع كل انسان اذا لم تكن الحرية مقيدة بعد في أي مكان كان . والسياسة الثورية نفسها تتردد حول النقطة التالية : امر المرغوب فيه تخيل المستقبل مسبقا أم لا ، وهل يتوجب على البشر ان يتخلوا عن الاستعمال الايجابي لحريتهم ما لم يتم تحرر الجميع بعد ، أم ان كل انجاز انساني يخدم ، على العكس ، قضية الانسان ؟ ان العلاقة بين بناء المستقبل والنضال السراهن ، داخل الاتحاد السوفياتي بالذات ، تبدو وكأنها محددة بأشكال متفاوتة عظيم التفاوت حسب الازمان والظروف . وهذه نقطة ينبغي على كل فرد ايضا ان يتكر حلها بحرية . وما نستطيع على كل الاحوال ان نؤكد ، هو ان المضطهد ملتزم بكامله بالنضال اكثر من التزام الذين لا يعانون من العبودية التي يعاني منها وان كانوا يرفضونها معه . لكن كل انسان معني ، من جهة اخرى ، بهذا النضال بطريقة اساسية للغاية حتى انه لا يستطيع ان يحقق نفسه اخلاقيا دون ان يساهم فيه . والمشكلة تتعدد عمليا من حيث ان الاضطهاد يأخذ اليوم اكثر من وجه واحد : فالفلاح العربي مضطهد من قبل الشيوخ ومن قبل الادارة الفرنسية او الانكليزية في آن واحد معا ، فأي العدوين عليه ان يحارب ؟ ومصالحة البروليتاريا الفرنسية ليست هي مصلحة الوطني المستعمر نفسها : فأيهما نخدم ؟ لكن المسألة هنا سياسية قبل ان تكون اخلاقية : اذ ينبغي ان تنتهي الى الغاء كل اضطهاد . وعلى كل فرد ان يناضل مع الارتباط بنضال الاخرين ، وان يدمج نضاله بالهدف العام . فأي ترتيب نتبع ؟ وأي تكتيك نبنى ؟ ان هذه المسألة هي مسألة مناسبة وفعالية . وهي تتعلق ايضا بالنسبة لكل فرد بوضعه الخاص الفريد . فمن الممكن ان يضطر الى التضحية مؤقتا بقضية يتعلق نجاحها بنجاح قضية اخرى تتطلب دفعا عاجل واسرع . ومن الممكن على العكس ان يرى ان من الضروري الحفاظ على توتر التمرد ضد وضع لا يريد ان يقبل به مهما كان الثمن : وهكذا

- التتمة على الصفحة ٥٨ -

محتم في بعض الحالات - يرهق من يقعون ضحية له وتأنه خبطة عشواء جديدة من القدر . وما ينبغي عمله هو ان تقدم لتعيد الجاهل الوسيلة لتجاوز وضعه عن طريق التمرد ، هو ان نبدد جهله . اننا نعرف ان مشكلة الاشتراكيين في القرن التاسع عشر كانت على وجه التحديد تنمية الوعي الطبقي لدى البروليتاريا . ونحن نتبين من حياة فلورا تريستان على سبيل المثال كم كانت هذه المهمة جاحدة : فما كانت تريده للشغيلة ، كان عليها اولا ان تريده بدونهم . لكن بأي حق نريد شيئا ما للغير ؟ هكذا سيسأل المحافظ الذي ينظر مع ذلك الى العامل او الى الوطني على انه « طفل كبير » والذي لا يتردد في ان يتصرف كما يحلو له بارادة الطفل . وبالفعل انه لمن التعسف ، كسل التعسف ، ان نتدخل تدخلا اجنبيا في مصير ليس هو بمصيرنا : بل ان هذا هو احدى فضائح الاحسان - بالمعنى المدني للكلمة - ذلك الاحسان الذي يمارس من الخارج ، حسب نزوة فاعله الفصول عن موضوعه . بيد ان قضية الحرية ليست قضية الغير اكثر مما هي قضيتي : انها قضية انسانية عالمية . واذا كنت اريد ان يعي الرقيق عبوديته ، فهذا كيلا اكون انا نفسي طاغية - ذلك ان كل استنكاف تواطؤ ، والتواطؤ طغيان هنا - وكيفا تنفتح في الوقت نفسه امكانيات جديدة للعبد المتحرر ولجميع البشر من خلاله . ان ارادة الوجود ، وارادة كشف العالم ، وارادة البشر احرازا ، انما هي ارادة واحدة .

وبالاصل فان المضطهد يكذب اذا زعم ان المضطهد يريد الاضطهاد بملء ارادته . انه يستنكف فقط عن الا يريده ، لانه يجهل حتى امكانية الرقص . ان كل ما يستطيع عمل خارجي ان يقترحه على نفسه هو ان يضع المضطهد بحضور حريته : انذاك سيقدر ايجابيا ، وبحرية . والواقع انه يأخذ قراره ضد الاضطهاد وأنشد تبدأ حركة التحرر فعليا . ذلك انه اذا كان صحيحا ان قضية الحرية هي قضية كل فرد ، فصحيح ايضا ان ضرورة التحرر ليست واحدة بالنسبة للجميع . ويقول ماركس بحق : ان التحرر لا يبدو ضروريا مباشرة الا للمضطهد وحده . اما نحن فاننا لا نؤمن بضرورة يقتضيها الواقع ، بل بمطالب اخلاقي . ان المضطهد لا يستطيع ان يحقق حريته كإنسان الا في التمرد ، باعتبار ان خاصية الموقف الذي يتمرد عليه هي على وجه التحديد ان تحرم عليه كل تطور ايجابي . وانما في النضال الاجتماعي والسياسي تتجاوز صبوته نفسها

فندق نيوبالاس

إدارة : فتحى نوفل

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان



وسط راق
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

ت : ٤٥٩٣٦
س : ٧٩٧٩١

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دمر سابقا) القاهرة
تلفون مركز بيمارالدين

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

الحرية والتحرر

- تنمة المنشور على الصفحة ٤ -

رفض ريشارد رايت ان يليي دعوة اميركا حين طلبت عند دخولها الحرب من الزعماء السود ان يتخلوا عن مطالبهم الخاصة من اجل المصلحة العامة ، مقدر ان من واجبه الدفاع عن قضيته حتى اثناء الحرب ، وعلى كل حال ، فان ما تتطلبه الاخلاق هو الا يعمي المحارب هدفه الذي يفتوحه على نفسه الى حد يسقط معه من جديد في تعصب الجد او الهوس . وينبغي للقضية التي يخدمها الا تغلق على ذاتها ، فتخلق بذلك عنصر انفصال جديدا : ان عليه ان يسعى من خلال نضاله الخاص الى خدمة قضية الحرية العالمية .

وسرعان ما يرفع المضطهد احتجاجا واعتراضا ، فيقول : ها انتم ، بحجة الحرية ، تضطهدونني بدوري ، انكم تحرمونني من حريتي . وهذه هي الحجة التي كان يعارض بها انصار الرق الجنوبيون دعاة الغائه الشماليين ، ونحن نعلم ان الشماليين كانوا مشبعين بمبادئ ديموقراطية مجردة للغاية حتى انهم لم يعترفوا لانفسهم بالحق في ان يرفضوا لمزارعي الجنوب حرية امتلاك الرقيق : وانما باسم حجة شكلية خالصة اندلعت حرب الانشقاق . ان مثل هذه الوسوس تبعث على الابتسام . بيد ان اميركا لا تزال الى اليوم تعترف ضمنا ان قليلا وان كثيرا لبيض الولايات الجنوبية بحرية سحل السود . وهذه هي السفسطة عينها التي تتجلى ببراءة في صحف الحزب الجمهوري الحر ، وببراعة متفاوتة في مختلف الجرائد المحافظة . وحين يعد حزب من الاحزاب الطبقات الحاكمة بحماية حرياتها ، فهذا يعني بدقة انه يطالب لها بحرية استقلال الطبقة الشغيلة . ومثل هذه المطالبة لا تثير الاستنكار باسم عدالة مجردة : بل لان فيها تناقضا يخفيه سوء النية . ذلك ان حرية من الحريات لا تريد نفسها بأصالة الا اذا ارادت نفسها حركة لا متناهية عبر حرية الغير . وما ان تنطوي على نفسها ، حتى تنكر ذاتها لمصلحة موضوع من المواضيع تفضله على نفسها : اننا نعرف بما فيه الكفاية اي حرية يطالب بها الحزب الجمهوري الحر : انها الملكية والمتعة ، انه الرأسمال والرفاهية والامان الاجتماعي . وليس علينا ان نحترم الحرية الا حين تنذر نفسها للحرية ، لا حين تتهرب وتهرب وتكذب على نفسها . ان حرية لا تعمل الا لنفي الحرية ، ينبغي ان تنفى . وليس صحيحا ان الاعتراف بحرية الغير يحد من حريتي الخاصة : فكوني حرا لا يعني انني استطيع ان افعل اي شيء كان ، بل يعني ان استطيع تجاوز المعطى نحو مستقبل منفتح . ان وجود الغير كحرية يحدد موقفي بل انه شرط حريتي الخاصة بالذات . انني اضطهد اذا ما القي بي في السجن : لا اذا ما منعت من ان القي فيه بجاري .

وعلى هذا ، فان المضطهد نفسه واع لهذه السفسطة : فهو لا يجروا تقريبا على الاعتماد عليها ، كما انه بدلا من ان يطالب بحرية الاضطهاد بكل عريها ، يصور نفسه عن طواغية اكبر بانه المدافع عن بعض القيم . انه لا يحارب باسمه : بل باسم حضارة ، ومؤسسات ، وانصاب ، وفضائل تحقق موضوعيا الموقف الذي يهدف الى الحفاظ عليه .

انه يصرح ان جميع هذه الاشياء جميلة وصالحة في ذاتها . انه يدافع عن ماض توشح بكرامة الكينونة الجامدة ضد مستقبل غير مضمون لم تتحقق بعد قيمه . وهذا ما تعبر عنه ماركة « محافظ » . ولما كان البعض محافظين على متحف او على ديوان ميداليات ، فان غيرهم يجعل من نفسه محافظا على العالم المعطى . انه يختار ما كان ضد ما لم يكن بعد ، منوها بالتضحيات التي سيؤدي اليها بالضرورة كل تغيير .

ومن المؤكد ان تجاوز الماضي نحو المستقبل يتطلب تضحيات دواما . وان نزع اننا نحافظ ديالكتيكيا على حي قديم حين نهدمه لنبني على انقاضه بيوتا جديدة ، فهذا ليس الا من قبيل التلاعب بالالفاظ ، فما من ديالكتيك يستطيع ان يبعث من الموت مرفا مارسيليا القديم . والماضي باعتباره غير متجاوز ، وبحضوره كماض من لحم ودم ، يتلاشى تلاشيا مطلقا . وكل ما يستطيع ان يزعمه تفاؤل عندد هو ان الماضي بشكله الفريد والمتجمد هذا لا يعيننا ، واننا لانضحي بشيء اذ نضحي به . وهكذا يرى الكثير من الثوريين ان من الصحة رفض كل تعلق بالماضي ، والدعوة الى احتقار الانصاب والتقاليد . لقد قال صحفي يساري وهو يدوس بنفاد صبر في شارع من شوارع بومباي : « ماذا نفع لنا هنا ؟ اننا نضيع وقتنا » . وهذا الموقف يؤكد نفسه بنفسه . فلنشج بأوجها عن الماضي ، فلا يبقى من اثر منه لا في الحاضر ولا في المستقبل . ولقد نسي اهل العصور الوسيطة العصور القديمة كل النسيان حتى لم يعد هناك من يتمنى منهم ان يعرفها . اننا نستطيع ان نعيش بدون يوناني ، وبدون لاتيني ، وبدون كاتدرائيات وبدون تاريخ . اجل . لكن هناك اشياء اخرى كثيرة نستطيع ان نعيش بدونها ايضا . فالانسان لا يهدف الى تقليص نفسه ، بل الى تنمية قدرته . وان ترك الماضي لظلام الاصطناع ، فهذه طريقة في تفريغ العالم من ساكنيه . وانني لارتاب في مذهب انساني لا يبالي بجهود البشر السابقين . واذا كان كشف الكينونة الذي حققه اسلافنا لا يؤثر علينا البتة ، فلم نهتم بالكشف الذي يتم اليوم ، ولم نتمنى بحرارة انجازات مستقبلية ؟ ان تأكيد الملكوت الانساني ، يعني تعرف الانسان في الماضي كما في الحاضر . ان انساني عصر النهضة يقدمون لنا مثلا عن المساعدة التي يستطيع ان يقدمها تاصل الجذور في الماضي الى حركة من حركات التحرر . ولا شك في ان دراسة اليوناني واللاتيني ليس لها هذه القوة الحية في كل عصر . لكن كوننا لنا ماض ، يمثل على كل الاحوال جزءا من شرط الانسان . ولو كان العالم ورائنا عاريا ، لما استطعنا البتة ان نلمح امامنا من شيء سوى صحراء قاتمة . ان علينا ان نحاول ، من خلال مشاريعنا الحية ، ان نستعيد لحسابنا تلك الحرية التي التزمت في الماضي وان ندمجها بالعالم الراهن .

لكننا نعرف ، من جهة اخرى ، انه اذا كان الماضي يعيننا ، فليس ذلك باعتباره معطى خاما : بل باعتباره يملك دلالة انسانية . واذا كانت هذه الدلالة لا يمكن ان يعترف بها الا مشروع يرفض تركة الماضي ، اذن فينبغي ان ترفض هذه التركة ايضا : فمن العبث ان نبقي ضد الانسان على معطى ليس له من قيمة الا بمقدار ماتعبر حرية الانسان عن نفسها فيه . وثمة بلد انزلت فيه عبادة الماضي منزلة النظام : انه برتغال اليوم . لكن ذلك انما على حساب ازدراء متعمد للانسان . فعلى جميع التلال التي كانت

تقوم فوقها الخرائب ، بنى سالا زار قصورا متألقة بتكاليف باهظة ، ولم يتردد في اجراء هذا الترميم في اوبيدوس على حساب الاعتمادات المخصصة لمستشفى الولادة ، مما ادى الى اغلاقه . وفي ضواحي كويمبرا حيث كان ينبغي بناء مستعمرة للاطفال ، انفق الكثير من المال لاعادة تشييد مختلف نماذج البيوت البرتغالية القديمة على نمط مصغر ، بحيث انه لم يمكن ابواء سوى اربعة اطفال في تلك القرية المسموخة . وهو في كل مكان يشجع الرقص والغناء والاعياد المحلية وارتداء الازياء الاقليمية القديمة : في حين انه لا يفتح مدرسة واحدة ابدا . اننا نرى هنا عبث اختيار يفضّل الشيء على الانسان الذي لا يستمد الشيء قيمته الا منه وحده . ان الرقص والغناء والازياء الاقليمية يمكن ان تكون مثيرة للانفعال لان هذه المتكررات تمثل في الشروط القاسية التي كان يعيش فيها فلاحو الماضي الانجاز الوحيد الحُر الذي كان مسموحا لهم به ، فقد كانوا ينسلخون عن طريق هذه المتكررات عن عملهم المذل ، ويتجاوزون وضعهم ويؤكدون انفسهم كبشر تجاه دواب الركوب . ولهذه الاعياد معناها وقيمتها ، حيثما ما زالت موجودة تلقائيا ، وحيثما احتفظت بهذه الصفة . لكنها لم تعد الا مجرد نصب ممل ، بله تضليل بغرض ، بعد ان اعيد نسخها بأبهة كبيرة من أجل التأثير على سياح لا مبالين . وانها لسفسطة ان يريد الانسان الابقاء بالاكره على اشياء تستمد كل قيمتها من محاولة البشر الهرب من اكرهاتهم عن طريقها . وعلى هذا ، فان جميع من يعارضون التطور الاجتماعي باحترام الزركشات القديمة ، والسجاد ، والطرايش الفلاحية ، والبيوت الغربية ، والاعادات المحلية ، والنسج اليدوي ، واللغة القديمة ، الخ ، يعلمون كل العلم انهم يصرون عن سوء نية : فهم انفسهم لا يتمسكون كثيرا بالواقع الراهن لهذه الاشياء ، وحياتهم نفسها ، في غالب الاحيان ، تدل اوضح دلالة على ذلك . بقينا ، انهم يهتمون بالغلظة والخشونة كل من لا يعترف بالقيمة غير المشروطة للحبكة الالسنونية (1) . لكنهم يعرفون في الحقيقة ان هذه الاشياء ليست ثمينة في حد ذاتها بل لانها تعبير عن الحضارة التي تمثلها : انهم يطرون ويمدحون صبر وخنوع الايدي الشغيلة الشاخصة الى الابرة ، اطراءهم ومدحهم لاشغال الابرة نفسها . ولهذا فاننا نرفض اشغال الابرة ، لرفضنا الصبر والخنوع . ونحن نعلم ايضا ان النازيين كانوا يصنعون اغلفة كتب وعاكسات للنور جميلة للغاية من الجلد البشري .

وعلى هذا فان الاضطهاد لا يستطيع البتة ان يبرر نفسه باسم المضمون الذي يدافع عنه ، والذي ينزله منزلة الصنم المعبود عن حيث نية . ان هذا المضمون يتطلب تجاوزه الخاص ، فيما اذا ربط بالذاتية التي تؤسسه . واننا لانحب الماضي في حقيقته الحية اذا ما تشبنا بالابقاء على اشكاله الجامدة الموميائية . ان الماضي نداء ، وهو نداء نحو المستقبل الذي لا يستطيع احيانا انقاذه الا بهدمه . اما ان هذا الهدم تضحية ، فمن الكذب ان ننفي ذلك : فما دام الانسان يتمنى ان تكون هناك كينونة ، فانه لا يستطيع ان يتخلى بدون اسف عن أي شكل من اشكال الكينونة . لكن الاخلاق الاصيلة لا تعلم رفض التضحية ولا نفيها : اذ لا بد من تحملها .

ان المضطهد لا يحاول فقط ان يبرر نفسه باعتباره محافظا . فهو كثيرا ما يفضل ان يتحدث عن انجازاته المستقبلية ، ويتكلم باسم المستقبل . ان الرأسمالية تطرح

(1) : الالسنون : منطقة في فرنسا مشهورة بطريقة معينة في اشغال الابرة .

« المترجم »

صدر حديثا

ازمة الجنس

في القصة المرعبة

تأليف غالي شكري

دراسة وافية عميقة عن

قضية الجنس وكيف

عالجها اشهر الروائيين

العرب المعاصرين

منشورات دار الآداب

الثن ٤٥٠ ق.ل